هارب

بقلم : السيد عبد الرؤوف

عندما غادر شندى قريته فى اقصى الصعيد لم يكن فى نيته أن يعود .. كان آخر من بقى من العائلة بعد أن راح رجالها واحدا وراء الآخر فى عمليات الثأر المتبادلة بين عائلته وعائلة الابراشى أكبر عائلات القرية .. كان قد حصل على قدر من التعليم ومنعه أهله من الذهاب الى المدرسة خوفا عليه من القتل .. وعاش فى القرية يشهد مصرع اخوته واحدا وراء الآخر .. وفى كل مرة كان يشعر أن دوره يقترب .. ففى مقابل كل واحد من اخوته كان يقتل من العائلة الاخرى رجل .. وعندما بقى هو كانت عائلة الابراشى ما تزال مدينة لهم برجل .. وقتل هو هذا الرجل .. كمن له بين اعواد القصب وانتظر .. وطال انتظاره له ساعات .. وفى نصف الظلام سدد بندقيته ودوت فى الافق أصوات رصاص .. وانتهى كل شىء .. كان أعد عدته لمغادرة القرية الى الأبد .. لم يكن يقتنعا بما يفعل .. ولكن هذه الاشياء لا تمارس باقناع .. انها تمارس تلقائيا .. تماما كما يحرك الانسان يده يدفع بها ذبابة عن عينه .. وهناك لا يعترون القتل عيبا وكذلك الموت .. وهو كذلك لم يكن يعتبر الموت عيبا ومع ذلك كان يخاف منه .. وعندما انطلقت الرصاصات من بندقيته شعر بأن كل شىء قد انتهى .. كان يشعر بأنه يجب الا يموت .. يجب أن يعيش وأن يذهب .. لابد أن يذهب الى مكان بعيد ..

خوفا من الموت .. ولكن موته يعني موت العائلة .. لم يعد هناك رجال يحملون اسمها الا هو .. ولا بد أن يعيش ويترك أولادا يذكرهم بالقصة الخالدة ويعلمهم ويمدهم للانتقام ..

وغادر الغربة وفي ذهنه صورة عامضة عن مستقبله .. لم يكن في ذهنه أي فكرة عن المكان الذي يجب أن يذهب اليه .. يجب فقط أن يهرب .. ويهرب بسرعة .. والى أي مكان بعيد .. بعيد بالقدر الذي لا يستطيع معه أحد من عائلة الاراشي أن يصل اليه فيه .. وقد يرجع .. ولكن ليس قبل أن يكون قد أعد عدته لانتقام كبير يمحي كل خسائر العائلة .. وبعدها لا يهم أن يموت .. وسافر .. ركب القطار المتجه الى القاهرة وقرر أن يقيم هناك .. في القاهرة يعيش أفراد العائلة انقطعت صلتهم بها منذ زمن بعيد .. ولكنهم قطعا سوف يمنحونه حمايتهم حتى يستطيع الحصول على عمل .. لقد كان يعيش في قريته سيدا عزيزا .. وقد يعمل الآن خادما أو بوابا او عامل بناء ولكن هذا لا يهم مادام سوف له الحماية اللازمة بعيدا عن الجحيم .. ولكنه عاد فاستبعد فكرة مقابلة هؤلاء الاقارب .. انهم قطعا سيثورون عليه .. انه هارب ويستحق الموت لا الحماية .. وقد يقتلونه بالفعل .. أو على الأقل يبصقون عليه احتقارهم بدلا من الاحترام المطلوب لرجل صفى ديون العائلة مع عائلة الاراشي .. وربما عرف أحد من عائلة الاراشي بمكانه ..

ان سيحتملونه .. وهذا يكون قل ماعمله قد ضاع وضاع معه شرف العائلة .. وفكر وهو مستند برأسه على زجاج النافذة البارد في قطار الليل فيما لو كانوا في القرية قد عرفوا بهربه وبتموه .. ولم يملك في هذه اللحظة ان يمنع نفسه من النظر خلفه في رعب .. ولكنه استبعد أن يكون أحد قد عرف من أمره شيئا .. انه لم يخبر أحدا .. ولم يره أحد وهو يغادر البيت ومعه البندقية .. انهم حتما سيعرفون .. ولكن ذلك لن يكون قبل الصباح .. وفي الصباح سيكون في حيث لا يعرف أحد .. وشعر بارتياح غريب عندما فكر في انه قد أفلت بجلده من موطن الجحيم .. وتحسس يده حيث الحقيبة فيها حفنات كثيرة تكفي لأن يفتح محلا للبقالة .. ولكنه لا يريد هذا .. لا يريد أن يستقر في مكان واحد .. واذا كان لابد من الاستقرار فلا يمكن أن يكون هذا قبل وقت طويل .. قد يستقر من الآن في مكان واحد سواء بعد أو قرب ثم تصل أخباره الى القرية وهنا لابد أنه سيلقى نفس المصير التعس الذي كان سيلقاه لو انه بقي هناك .. انهم لن سكتوا عنه .. سيظلوا يتتبعون أخباره حتى يعثروا عليه .. ولذلك لابد من تضليلهم .. لابد من الترحال .. وفكر فيما يجب أن يفعله .. ان أهل قريته معظمهم فقراء وكثيرون منهم يهجرون القرية بسبب الشظف الذي يعيشون فيه .. وكثيرون منهم يعملون في التراحيل التي لا تكف عن التنقل من مكان الى مكان .. فكرة .. ولكن ..

ماذا لو تقابل مع واحد من هؤلاء ؟..
انه ليس فقيرا بالدرجة التي تدفعه الى العمل في التواحيل .. سيكون اذن هناك كلام ولن يمكنه الهرب من مصيره البشع .. ولكن فكرة اخرى .. فكرة جميلة طرأت عليه !! ولعل عباءته لانه لم يفكر فيها منذ البداية .. يمكنه أن يبيع قماشا .. انه سمع من كثيرين فعلوا ذلك ونجحوا وعاشوا بعيدا عن الفقر .. اثواب قليلة من القماش توضع في لفة كبيرة .. وهما .. ويحملها على كتفه ويتنقل .. وسوف يجد قلوبا تستمع له .. انه غريب .. وهناك أناس كثيرون يشعرون بالحنان نحو الغرباء .. ربما لحزنهم من أن يصبحوا هم انفسهم غرباء .. وربما لأن لهم أولادا بعيدين عنهم .. بل انه هو نفسه رغم أنه لم يسبق له أن ترك بلدته .. ورغم أنه ليس له عزيز يعيش بعيدا عنه الا أنه يشعر بالميل للعطف على الغرباء .. وحتى لو لم يجد عطفا من أحد .. فانه بحاجة للعطف .. ان الناس مهما بلغت قسوتهم لن يكونوا في مثل قسوة القدر الذي شاء له أن يعيش عشرين عاما وأكثر في خوف دائم من الموت .. والموت اما سبب مقتول أو حتى غير مقتول .. والذي شاء له الآن أن يتشرد بعيدا عن القرية التي لم يعرف شيئا وراء حدودها الا فيما قرأه من كتب أيام كان في المدرسة .. لقد كان هذا القدر قاسيا في حكمه .. ذلك الحكم الذي بدأت قصته بأعواد قصب اقتلعها أحد أحداده بدون قصد من حقل رجل من عائلة الارناؤس .. هذا القدر قاس والناس لا يمكن ان يكونوا في مثل قسوته .. وهو حتى لا يريد حمايتا انه يريد حماية .. وهذه الحمايه لا يطلبها من الناس .. انه سوف يجدها في التنقل .. ومشكلة السكن والاستقرار .. انه يمكن أن يبيت في أي مسجد .. يمكنه أن يستأجر بيتا أو حجرة لمدة قصيرة ثم يغادرها .. حتى لو اضطر لاقامة خيمة ينام فيها .. أن هذا الترحال هو فترة مؤقتة لابد بعدها من الاستقرار .. بعد أن تكون القصة قد عفى عليها الزمن .. بعد أن يكون الناس قد نسوا الى حد ما .. ولكن مرسيس انهم هناك لو نسوا كل شيء فلا ان يمكن أن ينسوا هذه القصة .. قصة الهارب .. الجبان ..

وضاق صدره .. ضاق وانقبض .. وشعر كأنه يختنق .. شعر كأنه وضع بين ترووس سافلة شدها ثور قوي .. وبيد مرتعشة حاول أن يلف سجارة .. ولكن الورقة تمزقت في يده وتساقط منها التبغ فوق جلبابه الأسود .. وتذكر أن في جيبه علبة سجائر فأخرجها واشعل سجارة .. لم يشعر لها بطعم .. شعر بجفاف في حلقه .. وتلمس كوب ماء .. ولكن لا أحد هناك .. الغرفة خاوية .. ليس فيها أحد على الاطلاق .. النور فيها ضعيف باهت يرتدس شعوره بانقباض .. وحاول أن يتشاغل بالنظر من النافذة .. ولكن الظلام يلف كل شيء .. وفي الصمت .. في الصمت كان ضوء خافت .. وحاول أن يشغل نفسه بالنظر الى الضوء وهو يتمدد ويطوقه الظلام .. وسمع صوتا يقول له أيها

هارب ... انها الحقيقة ... وليست خلفه في دعر .. ولم يجد احدا .. وندم على انه ترك البندقية .. لو انه حملها معه اذن لضمن لنفسه الحماية على الاقل حتى يصل الى القاهرة . فالليل صامت ورهيب .. وصفير القطار يلهب رأسه .. البرودة التي تقتحم الغرفة من بعض النوافذ لا يشعر بها .. لايشعر بشيء .. رأسه تدور وتدور وجسمه يعلو والعرق يكتسح جسمه ليغرق وجهه .. والصق وجهه بالنافذة ونظر في الظلام البعيد .. قرية هناك ترقد في قلب الرمال .. ومنها تأتي أضواء خافتة .. شمعة ميتة .. ودارت الأضواء ودارت .. وكأنها مشاعل في حلقة نارية في مشهد بالسيرك ..وظلت تدور وتدور .. ومعها يتقيأ ويتمخض .. وكفت الأضواء عن الدوران وتركزت .. تركزت وقل عددها واصبحت عينين اثنتين . لم يستطع أن يتبين ملامح الوجه .. ولكن العينين تحدقان فيه .. وبدأت صورة الوجه تكتمل .. انه لا يعرف صاحب الوجه .. لا لا لا .. انه الآن يعرفه .. رشوان .. الشقيق الأصغر للرجل الذي قتله اليوم .. وقالت العينان دورك الآن .. وصفع النافذة بيده .. ولكن رجاحتها لم يتحطم وتمنى لو كان صفعها برأسه حتى تتحطم وتتحطم رأسه معها .. وكف عن النظر من النافذة ووضع رأسه بين يديه .. ودارت رأسه من جديد .. وشعر وكأنه مريض بالتيفوس .. حلقه جاف .. وكل الأشياء فقدت معناها عنده .. الكرامة .. العائلة

... الأسم .. البرتقال ... لا شيء يعني في دهشه الا انه جبان .. هارب .. متخاذل .. لابد أن يعود ويواجه مصيره .. لابد أن يعود .. ولكن كيف يعود الان .. انه يقترب من الخلاص .. مئات الأميال تقطعها بعيدا عن الجحيم فكيف يعود ..؟ بل لابد أن يعود .. لا يهم أن يموت .. المهم أن يبقى للعائلة شرفها .. عندما يموت سيعرف الفرناوه في القاهرة .. لقد انقطعت صلتهم بالعائلة والقرية منذ زمن بعيد .. ولكنهم سوف يمارسون الشيء التقاليد الذي مارسه هو .. اذن سيعود .. سيعود .. وتحرك نحو الباب .. ولكنه تذكر أن القطار يسير .. فعاد الى مكانه .

وفي الصباح كان القطار يقف في احدى المحطات .. ونزل بسرعة .. كان هناك قطار آخر ذاهب الى الصعيد .. انتقل الى الرصيف الآخر وكان القطار يتحرك .. وبسرعة قطع تذكرة .. وجرى نحو القطار .. وكان القطار يسير .. وأمسك بمقبض الباب .. وظل يجري مع القطار .. ولكن شيئا ما كان يجذبه الى الخلف .. صوت ما كان يحذره : لا تعود .. وصوت آخر كان يصرخ فيه لابد أن تعود .. وفجأة شعر بشيء يجذبه الى الأرض .. وحاول أن يقاوم .. ولم يستطع .. وسقط .. سقط في الهواء بين الرصيف والقطار .. وسمع الناس في المحطة صرخة ألم .. وعندما غادر القطار المحطة كانت على الشريط اشلاء رجل وحولها بركة من الدماء ...